منهـجُ الجرجاني من خــلال نظرية النَّظم في كتابة دلائل الايجاز

د . محمّد علــي جودر ــ كلية التربية العجيلات ــ جامعة الزاوية.

المُقدّمـــة :

نــزل القـرآن بلغة العرب الذين كانوا أفصح الناس لساناً ، فتحداهم فاعجزهم، فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله ، ولا أن يأتوا بسورة أو آية ، فبُهروا ببلاغته ، وقوة بيانه، وتجلت لهم صور إعجازه، فوقفوا عاجزين أمام بلاغته ، وفصاحته، وبيانه .

مشكلة البحث :

مــن خلال تتبع النصوص القرآنية فطــن الجرجاني إلى نظريته التي أطلق عليها نظرية النظم ، والسؤال الـذي يتبادر إلى الـذهن ما الذي أعجز العرب فيه ؟ هل عجزوا أمام معانيه الدقيقة ؟ أم لحكمه الفصيحة ؟ يجيب على هــذه الأسئلة الشيخ عبد القاهر الجرجاني من خلال هذا البحث .

أهمية الموضوع :

الذي أعجز العرب عن الإتيان بمثله وفسر إعجازهم به فقال : " أعجزهم مزايا ظهرت لهم في نظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ، وتقاطعها ومجرى ألفاظها ، وأبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشراً عشراً وآية أية، فلم يجدوا اتساقا بينهم العقول، وأعجز الجمهور نظاماً واتساقاً وأحكاما حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول[1]

خطة البحث : وقد قسمت البحث إلى مُقدمة ، وأربعة مطالب ، وخاتمة ، وهوامش .

المطلب الأول ـ تعريف النظـــــم :

وردتْ لفظة النظم في المعاجم العربية على النحو التالي :

ففي صحاح العربية : " نظمت اللؤلؤ ، أي : جمعته في السلك ، ومنه نظمت الشعر ونظمته ، ويقال لثلاثة كواكب من الجوزاء نظم"[2] وفي مختار الصحاح: "نظم: اللؤلؤ جمعته في السلك، وبابه ضرب، والنظام الخيط الذي ينظم فيه اللؤلؤ"[3]، وجاء في معجم العين: "نظم: النظم نظمك خرزاً بعضه إلى بعض ، في نظام واحد، والنظام كل خيط ينظم به لؤلؤ أو غيره فهو نظام"[4]، وفي لسان العرب : " نظم : النظم التأليف، ينظمه ، نظما، فأنتظم ، والجمع أنظمة وأناظم ونظم"[5]، وقد ذكر ابن سيده في المخصص:

" النظم: مصدر نظم ينظم نظماً وهو ضد المقابل النثر"[6]، وقال فخر الدين الرازي : "خلوص الكلام من التعقيد وأصله من الفصيح ، وهو اللبن الذي أخذت منه الرغوة" [7]، أما الجرجاني فيعرفه : " وأعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه "[8]، ولذلك جــاء اطلاق كلمة نظم على حــروف القرآن ، وكلماته، وجملة ، وآياته ، وسوره، وموضوعاته ، وكذلك على الشعر والكلام من قبيل المجاز[9]، والنظـــم في اصطلاح البلاغين : " تنسيق دلالة الالفاظ ، وتلاقي معانيها ، بما تقزم عليه من معاني النحو الموضوعة في أماكنها على الوضع الذي يقتضيه العقل"[10].

من خلال تتبعنا لمصطلح النظم في المعاجم المختلفة يمكننا الوصول إلى ما يأتي :

1- اهتمام العرب القدامى بالجانب النقدي منذ عصور قديمة، عرف خلالها النقد تطوراً.

2- حرص العرب على اللغة العربية وفهم القرآن الكريم والحديث الشريف.

3- البحث عن أوجه الإعجاز القرآني، في القرآن الكريم والإعجاز النبوي في الحديث الشريف، كان وراء ظهور مصطلح "النظم" هذا المصطلح النقدي أدى إلى بروز نظرية مهمة في تاريخ النقد، وهي نظرية "النظم" على يد نقاد لهم شأن كبير في الدراسات النقدية القديمة المختلفة عبر العصور، مثل الجاحظ، والباقلاني، والجرجاني وغيرهم.

4- إن نظــرية النظم وردت بأسماء مختلفة قبل ظهور نظرية النظم ، منها البك اسيك، والرصف.

5- إن عبقرية الجرجاني تجلت في الوصول بالنقد إلى مرحلة متطورة من خــلال نظريته التي أدّت إلى دراسة القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف، والتعمق في الأساليب التي ميزتهم في الإعجاز العلمي للقرآن في نظمه وأسلوبه وبيانه.

المطلب الثاني ــ النهضة العلمية وأثرها في حياة الجرجاني:

ولد الجرجاني في عصر قد اكتملت فيه مختلف العلوم العربية من نحو وفقه، ونضجت فيه كل أنواع الثقافات، اذ جمعت فيه الدواوين الشعرية، وألفت المعاجم اللغوية، ناهيك عن العلوم التي ترجمت عن الشعوب المجاورة كالفرس، والهند، وغيرها ...، وتميز ذلك العصر بظهور طوائف مختلفة من أشاعره ومعتزلة وغيرها.

وكان لهذه النهضة العلمية في القرن الخامس الهجري الأثر الكبير في معالجة كثير من القضايا العلمية، والأدبية، والدينية، بمنطق العقل، والاجتهاد، ساعدهم في ذلك حرية الرأي، ومجالس العلم والأدب، والمنطق.

وفي هذا الخضم الزاهر بشتى العلوم كانت ولادة عبد القاهر الجرجاني " أبو بكر عبد القاهر بن عبدالرحمن من محمد الجرجاني" في مطلع القرن الخامس الهجري من أصل فارسي من أهل جرجاني وإليها ينسب فقيل الجرجاني "[11] ، وقد نهل الجرجاني من تلك العلوم آنذاك على أيدي علماء أجلاء منهم : محمد بن الحسين الفارسي ، (471.) وأخذ العلم عن الجاحظ ، وابن سلام ، وابن قتيبة ، وقد يقي في بلدته حتى توفي بها (471هـ) أما سنة ولادته فبقيت مجهولة.

كان الجرجاني مصنفاً مكثراً، وجل مؤلفاته كانت في النحو، لكن فيها مختارات وعروض وإعجاز وأكثرها مخطوط"[12]، وقد برزت شهرته في كتابيه (دلائل الإعجاز)، و(أسرار البلاغة) وعد من أشهر النقاد في تاريخ الأدب، وقد أثبت ببراعته أنه صاحب نظرية علمية دقيقة، استطاع أن يبين من خلالها هدفه الأساسي، إعجاز القرآن، الذي بلغ درجات الفصاحة والبلاغة، وبذلك كانت نظرية النظم عصارة فكره وغاية جهده[13].

نزل القرآن بلغة العرب الذين كانوا أفصح الناس لساناً، فتحداهم فاعجزهم، فلن يستطيعوا أن يأتوا بمثله، ولا أن يأتوا بسورة أو آية، فبهروا ببلاغته وقوة بيانه وتجلت لهم صور إعجازه، فوقفوا عاجزين أمام بلاغته، وفصاحته، وبيانه ومن نصوصه فطن الجرجاني إلى نظريته فأطلق عليها نظرية النظم ، والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن ما الذي أعجز العرب فيه ؟ هل عجزوا أمام معانيه الدقيقة ؟ أم لحكمه الفصيحة ؟ يجيب على هذه الأسئلة ، الشيخ عبدالقاهر الجرجاني قائلا : إن الذي أعجز العرب عن الإتيان بمثله وفسر إعجازهم به فقال: "أعجزهم مزايا ظهرت لهم في نظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه، وتقاطعها ومجرى ألفاظها، وأبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشراً عشراً ، وآية أية ، فلم يجدوا اتساقا بينهم العقول، وأعجز الجمهور نظاماً واتساقاً وأحكاما حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول[14].

المطلب الثالث ـ مفهوم النظم عند الجرجاني وكيفية شرحه للنظرية:

عرض الجرجاني نظرية النظم عرضا سريعاً، في كتابه دلائل الإعجاز، فقد جاء في مقدمة كتابه تعريفاً بأنه: "تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب بعض، والكلم ثلاث اسم، وفعل، وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة لا تعدو ثلاثة أقسام: تعلق اسم باسم، واسم بفعل، وتعلق حرف بهما وبذلك كان الجرجاني أول من جمع بين النظم وعلم النحو"(15).

وقد تباينت آراؤه حول مفهوم نظم الحروف، ونظم الكلم، فنظم الحروف عنده هو: "تواليها في النطق فقط، وليس نطقها بمقتفي عن معنى، يقول: "ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسماً من العقل" أما نظم الكلم عنده: يقتضي في نظمها آثار المعاني، وترتيبها على حسب ترتيب المعنى في النفس وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق"(16).

يفهم من خلال هذا العرض أن النظم عند الجرجاني: "النظم هو توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم من علاقات" .

المطلب الرابع ـ القضايا التي تناولها الجرجاني في نظريته :

عرض الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز قضايا عدة من أهمها: التقديم والتأخير، والوصل والفصل، والإظهار والإضمار، والاستفهام، والنفي، والحذف والتعريف، والتنكير، وغيرها من مباحث علم المعاني.

وقد استدل الجرجاني بالنصوص القرآنية وأشعار العرب وجعلها منهجاً تطبيقيا على نظريته، فجمع بذلك بين النظرية والتطبيق وأسس لفرع مهم من الدراسات النقدية صارت منهجاً لمن جاء بعده.

تطبيق النظم على النصوص عند الجرجاني: طبق الجرجاني قواعد النظم على النصوص فتناول دور المعاني في خدمة النظرية ومن ذلك :

1- **باب التقديم والتأخير** : وهو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، بعيد الغاية، وهو على اتجاهين:

2- تقديم على نية التأخير: فمثلاً: خبر المبتدأ في قولك: "منطلق زيد" فمعلوم أن منطلق لم تخرج بالتقديم عما كانت عليه من كونها خبراً للمبتدأ ومرفوعة بذلك، أما إذا كان الاسم معرفة فإن تقديم الاسم عليه أو تقديمه هو على الاسم يبرر به العناية

والاهتمام، فاذا قلنا: "زيد منطلق" فقد جعلنا زيد مبتدأ، ومنطلق خبر له واذا قلنا: (ينطلق زيد) فقد جعلنا الجملة فعليه فعلها ينطلق وفاعلها زيد وفي الجملة الأولى أردنا أن نوضح، أن زيداً هو من يكون منه الانطلاق، فالفعل غير مهم كأهمية زيد ، ومن أجل ذلك استعملت الجملة الاسمية هنا[17].

أما في الجملة الثانية فإننا نريد اثبات فعل الانطلاق لزيد، لا الكتابة أو المشي، لذا استعملت الجملة الفعلية، أي: أننا نهتم إما بزيد أو بفعله، أو بأيهما كان الاهتمام كان التقديم من حقه.

3- حذف المفردة في السياق : نظر الجرجاني إلى حذف المفردة في السياق يكسب الكلام روعة وجمالاً، لذلك أبدع الكتاب والشعراء في إيراده بأوجه متعددة ، لها بيانها وسحرها في نفس القارئ والسامع ، يقول في ذلك : " وهو باب دقيق المسالك" ، لطيف المآخذ عجيب الأمر، ويشبه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة وتجدك أنطق ما تكون بياناً إذا لم تبن[18].

وقد عرض الجرجاني لمواضيع حذف المبتدأ في الشعر:

اعتاد قلبك من سلمى عوائده ... وهاج أحزانك المكنونة الطّلل

ربع قواء أذاع المعصرات به ... وكلّ حيران سار ماؤه خضل

فالمحذوف هنا ، أي : ذاك قراء أو هو ربع

ومنه قــول الشاعـــر:

شَجْوُ حُسّــادِهِ، وَغَيظُ عِداهُ أنْ يَــرَى مُبصِرٌ، وَيَسمَعَ واعِ[19]

أي : يــرى مبصر محاسنــه ، ويسمع داع أخباره، كما وردت مواضع الحذف في النص القرآني : قال- تعالى- : **(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ)**[20]. ، هناك أربــع مواضع للحذف في الآية : " أغنامهم ، مواشيهم , تذودان أغنامهما، فسقى لهما غنمهم " ، ثم قال- تعالى- : **(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى)** [21]، ولــو شــاء الله أن يجمعهم لجمعهم .

وقد عرض الجرجاني كتابة لحســن الاستعارة وعدّها من جمال النظم وربــط بينها وبين علم المعاني ، وأكّــد على أهميتها ، ويذكر أنها على غرائبها ولطفها ، إنما تم لها الحسن بما توخى فــي وضع الكلام من التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، وقد دلل على ذلك يقول - تعالى- : (**وَاشْتَعَلَ الــرَّأْسُ شَيْبًا**)[22]، فقال : إنهم لم يزيــدوا على ذكر الاستعارة وكان بذلك يقصد العلماء السابقين مثل: الجاحــظ ، وابن رشيــق ، وابن سلام ، وغيرهم ، فيقول : وليس الأمــر كذلك إنما الجمال أن تعلم أن (**اشْتَعَل**) الشيب في المعنى والرأس في اللفظ ، فهل إذا أخذت اللفظ وأسندته إلى الشيب أن تقول: " اشتعل شيب الرأس " وإن كان صحيحا هل تجد روعة السياق كما تراها في قوله- تعالى- : **(وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا)**[23]، فلماذا كان الفضل في استعارة الاشتعال للشيب ؟ تقول : إنه أفاد لمعان الشيب في الــرأس , الذي هو أصل الشمول , وأنه قد شــاع فيه وعمّ جملته حتى لم يبــق منه إلا ما لا يعتــدّ به

ومثله فــي ذلك في قوله - تعالى - : **(وَفَجَّــرْنَا الْأَرْضَ عُيُــونًا)** [24] ، فإنَّ التفجير في المعنى للعيون ؛ لكــن أوقــع على الأرض في اللفظ ، وذلك أنه أفــاد أن الأرض قد صارت كلّها عيونا ، وأن الماء كان يفــور من أماكن عدّة ولو قيــل : " وفجرنا عيون الأرض" لترأى لنــا أنه الماء قد فــار من عيون متفرقة مــن الأرض".

ومن خــلال ما قــدّم الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز من أمثلة تبيّن الآتــي :

1- أنه لا ميزة للألفاظ من حيث هي أصوات مسموعة ، إذ ليس للفظة قيمة ذاتية بمعزل عن السياق، ولكنها تحسن بمراعاتها للمعنى المراد.

2- . توظيف معاني النحو في السياق لخدمة المعاني العامة ، للنص الأدبي، بحيث لا يمكن الوقوف على معاني النص، إلا عن طريق المعاني

النتائج التي توصل اليها الباحث:

لقد تمكّــن الجرجاني من خــلال نظريته الوصول بتعبيراتنا اللغوية إلى أرقى مستوى ليأتي التعبير عن المعاني مساوٍ للحقيقة الراسخة في نفس السامع والقارئ ، والمتكلم دون زيادة أو نقصان دون الحاجة إلى اجتهاد من تــأويل أو تفسير.

1- إن عبد القاهر الجرجاني اتخذ النظم أساساً للفظ ومرجعا لبيان القيمة الجمالية والفنية في العمل الأدبي.

2- استحدث قوانين ترشد الذوق العربي، إلى الكشف عن مرتبة الكلام واستطاع من خلال نظريته أن تكون مرجعاً للنقاد والباحثين.

3- وقد جعل لذلك ميزانا ليستطيع الناقد من خلاله أن يزن الصورة البيانية وفق المعايير المطلوبة في العمل الأدبي ويرد عناصرها البلاغية إلى طريقة التأليف للعبارات .

4- إن الجرجاني أول من أسس لفكرة البنية العميقة ، والبنية السطحية التي نادى بها اللغويون الغرب.

5- كان للنقاد والبلاغيون مواقف مختلفة من نظرية النظم فمنهم من يرى أن النظرية امتداد لمواقفهم المبدئية من التراث العربي برمته.

6- إن بعضا من النقاد وقف من النظرية موقف النقيض من ذلك تماماً وهم الذين انساقوا وراء حضارة الغرب، وانسلخوا من القيم العربية وعلومها.

7- أن الجرجاني نشأ في بيئة عربية تلبية لحاجات فكرية خاصة لتلك الشعوب.

الهوامـــش :

(1) نفسه، ص85.
(2) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية تح: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط: 03، 1404هـ -1984م، مادة نظم.
(3) كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي دار كلية الهلال، د. ط/ د.ت، 8/185.
(4) لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، ط03، 2004م، 12/578.
(5) مختار الصحاح، محمد بن ابي بكر بن عبدالقادر الرازي، دار التاب العربي، بيروت، لبنان، د.ط، 1401هـ، 198، ص668.
(6) دلائل الإعجاز تح: السيد محمود رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، 1422هـ-2001م، ص:63.
(7) المخصص لابن سيده أي الحسن علي بن إسماعيل المرسي (458) تحقيق : خليل إبراهيم جمال، يشر: دار احياء التراث العربي، بيروت، ط1، 199/ 2008.
(8) نظرية النظم، صالح بلعيد نقلا عن فخر الدين الرازي، نهاية الايجاز في دراية الاعجاز، ص161.
(9) دلائل الاعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق : السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، 1422ه -2001، ص63.
(10) دلائل الاعجاز، ص65.
(11) نفسه، ص641.
(12) نفسه، 841.
(13) نفسه، 85.
(14) نفسه، ص85.
(15) نفسه، ص38.
(16) المرجع نفسه، ص33.
(17) ديوان البتحري تح، حسن كامل الصيرفي، ص 201، دار المعارف، مصر، 38.
(18) نفسه، ص157، ج2.
(19) دلائل الاعجاز، ص106، نفسه 258، 235.
(20) عيار الشعر لابن طباطبا العلوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص34- ت 1982.
(21) سورة القصص، آية 23- 24.
(22) الأنعام، آية 35.
(23) مريم، آية 4.
(24) القمر، آية 12.